

الأبعاد السياسية في رحلة ابن خلدون

POLITICAL DIMENSIONS OF IBN KHALDUN'S JOURNEY

بلعربي مجاهد *

جامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم (الجزائر)، medjahed.belaribi.etu@univ-mosta.dz

ميلود عبيد منقور

جامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم (الجزائر)، miloud.abidmaenkour.etu@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2021/09/27

تاريخ القبول: 2021/04/30

تاريخ الإرسال: 2020/02/25

ملخص:

يعالج هذا المقال فترة حساسة من حياة ابن خلدون، يمكن أن نطلق عليها مغامراته السياسية، التي عاشها متقلبا في نعيم الدولة، وكرم الملوك والسلاطين، متنقلا من دولة إلى دولة بمحو إرادته تارة، ومجبرا تارة أخرى؛ للقيام بوظيفة، أو تأدية مهمة سياسية. منها وظيفة الكتابة والتوقيع، وكتابة السر والإنشاء، والحجابه، والسفارة... بالإضافة إلى ذكر أخبار بعض السلاطين السياسية منهم (أبي الحسن) (أبي عنان)، كما رواها ابن خلدون تفيد في إثراء الجوانب السياسية للرحلة، وهي الغاية التي نطمح إليها. وكل هذا جوابا يكون شافيا لإشكالية هذا نصها: إلى أي مدى يمكن تصنيف رحلة ابن خلدون ضمن خانة الوثائق السياسية؟ أو بطرح أقرب للفهم: ما هي أهم الأبعاد السياسية التي تفصح عنها الرحلة الخلدونية؟.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون؛ وظيفة الكتابة؛ التوقيع؛ كتابة السر والإنشاء؛ الحجابه؛ السفارة؛ السلطان أبي الحسن وأبي.

ABSTRACT:

This article deals with a sensitive period of Ibn Khaldun's life, which we can call his political adventures, which he lived in a fickle state, and the generosity of kings and sultans, moving from state to state by erasing his will at times, and compelling at other times; to perform a job, or perform a political task. Including the function of writing and signing, writing the secret and creation, and the hijab, and the embassy... in addition to mentioning the news of some political sultans, including them (Abu Al-Hassan) (Abu Annan), as narrated by Ibn Khaldun, which serves to enrich the political aspects of the trip, which is the goal that we aspire to. This is a clear answer to a problem that reads: To what extent can Ibn Khaldun's trip be classified in the political documents field? Or to put forth a closer understanding: What are the most important political dimensions that the Khaldouni journey reveals?

Keywords: Ibn khaldun; the Function of Writing; Signing; Writing the Secret and Creation; the Hijabah; the Embassy; Sultan abu al-Hasan and abu Annan.

1. مقدمة:

شهد العصر الذي عاش فيه ابن خلدون (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادية) جوا مظلما كثرت فيه التقلبات، والصراعات، والنزاعات على السلطة طالت جلّ بلاد المغرب العربي، وقبله بفترة وجيزة، وبالضبط في أواخر القرن السابع الهجري كانت واقعة أليمة هي سقوط دولة الموحدين وهي البؤرة التي توالى على إثرها المصائب، وبعد هذه المصيبة التي حلّت بالعالم العربي توالى المصائب الواحدة تلو الأخرى لعل أفظعها انقسام المغرب العربي إلى دويلات صغيرة هي: دولة بني حفص في المغرب الأدنى وعاصمتها تونس، ودولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان، ودولة بني مرين في المغرب الأقصى وعاصمتها فاس، وتكمن خطورة هذا التقسيم في الصراعات التي كانت تحدث بين هذه الدويلات، والنوايا الفاسدة المتبادلة بين السلاطين الذين توالوا على حكم هذه الدول، ورغبة كل من يتربع على عرش الحكم السيطرة على دول الجوار... في هذا الجو المظلم نشأ وشب وشاخ العلامة ابن خلدون أحد مؤسسي علم الاجتماع. نشأ محبا للعلم والعلماء يتزود منهم ما يشاء، لكن الظروف تتحكم أحيانا بصاحبها، وتخضعه لها، وذلك حين حلّ الطاعون الذي أخذوا بالديه، وبالشيوخ الذين يأخذ عنهم العلوم، وهاجر معظمهم إلى دول أخرى.. وعلى إثر هذا الخطب قرر ابن خلدون الهجرة لأجل مواصلة تعليمه؛ فظل متنقلا بين تونس، وفاس، وبجاية، وتلمسان، وبسكرة، وبعض بلاد الأندلس، لكن ما حدث أنه تغيرت مساعيه، وكبرت أطماعه حتى بدأ يتقرب من الملوك والسلاطين جبا منه أن يصل إلى ما وصل إليه أجداده من الوظائف الحكومية العالية لعل أكبر ما كان يطمح إليه هو تولي منصب الحجابة. فكانت هذه الورقة البحثية تطمح للإجابة عن جملة من التساؤلات هي، ما هي أهم الوظائف السياسية التي تولّاها ابن خلدون أثناء رحلاته؟ وهل وفق في هذه الوظائف فأداها على أكمل وجه؟ وما مصير حياته العلمية في ظل حياته السياسية؟. هذه بعض التساؤلات التي يجيب عنها هذا البحث في إطار محدد ألا وهو رحلاته التي قام بها، والتي جمعت في كتاب قام بتحقيقه (محمد بن تاويت الطنجي) والذي وسم بـ(رحلة ابن خلدون).

وللإجابة عن هذه الأسئلة قمت بوضع منهجية تتلاءم مع نص الإشكالية لتكون النتيجة المرجوة مرضية، وهي كالتالي: بادئ ذي بدء مقدمة مناسبة، ثم التعريف بصاحب الرحلة، وبكتابه الذي يتضمن رحلته الموسومة بـ:(التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا)، والعنصر الثاني المتطرق إليه هو: الأبعاد السياسية التي أسفرت عليها رحلته والتي منها: التعريف بأهم شخصيتين سياسيتين في رحلته غربا وشرقا، ثم ذكر أهم الوظائف الحكومية التي شغلها العلامة، أثناء الفترة المقدرة بحوالي خمس وعشرين سنة، وعنصر آخر رأيته يدعم الجانب السياسي في رحلته وسمته: بالهروب السياسي، وخاتمة مثلت عصارة ما توصلنا إليه من خلال هذه الورقة البحثية، مستعينا في هذا كله بخطوات المنهج الوصفي، والمنهج الاستقرائي، ومحطات من المنهج التاريخي.

2. التعريف بابن خلدون ورحلته

1.2 نبذة موجزة عن حياة العلامة ابن خلدون:

جاء في ترجمته هو بنفسه أنه "عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون. (1)

مولده كان "بتونس في غرة رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة (732هـ) 2 يعود نسبه "إلى أسرة حضرية الأصل من عرب اليمن، أقامت في اشبيلية. " 3 أم نسبه فينحدر من سلالة "وائل ابن حجر. " (4 تلقى تعليمه في صغره عن والده معلمه الأول. 5 والأمر الذي يسر عليه أخذ العلم من مصدره، -من أفواه الرجال كما يقال-؛ هو منزل والده الذي كان "ملتقى علماء عصره وفقهائه. " 6، إذا والده كان السبب المباشر في تهيئة الجو العلمي له، ومن شيوخه الذين تلقى عليهم العلم بعد والده: أبو عبد الله محمد ابن العربي الحصائري التونسي، أبو عبد الله محمد بن الشّواش الزرزال، أبو العباس، عبد الله بن بحر، أبو عبد الله الجيّاني، وقاضي الجماعة: أبي عبد الله محمد بن عبد السلام... 7 من أراد التعرف على أخبار شيوخه عليه بالرجوع إلى رحلته، لكن ما يستوقفنا عند هذه النقطة شيخين كان لهما بالغ الأثر في تعليمه وتحصيله، فهو يطيل في ترجمته لهما وذكر فضلها الكبير عليه، فقد ساهما بقدر كبير في تنمية "ثقافته الشرعية واللغوية، والحكمية، أحدهما (محمد بن عبد المهيم بن عبد المهيم الحضرمي إمام المحدثين والنحاة بالمغرب، وقد أخذ عنه الحديث، ومصطلح الحديث، والسيرة العقلية... والآخر (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي) شيخ العلوم العقلية... تشمل المنطق وما وراء الطبيعة، والعلوم الرياضية، والعلوم الطبيعية، والفلكية، والموسيقى، وقد أخذ عنه الأصلين، والمنطق وسائر الفنون الحكمية، والتعليمية. " 8

2.2 انقطاع ابن خلدون عن التلمذة وأسبابه

تحدث ابن خلدون في مقدمته عن حادثين خطيرين غيرا مجرى حياته، ووضعاه في طريق لم يكن يعرف نهايته "أما أحدهما فحادث الطاعون الذي انتشر سنة (749هـ) في معظم أنحاء العالم... وكان من كوارثه أنه أهلك أبويه وجميع من كان يأخذ عنهم العلم من شيوخه. أما الحادث الثاني فهو هجرة معظم العلماء والأدباء، الذين أفلتوا من هذا الوباء الجارف من تونس إلى المغرب الأقصى سنة (750هـ) مع سلطانه أبي الحسن صاحب دولة بني مرين. " 9

2.3 نظرة العرب والغرب لابن خلدون

ينظر الغرب لابن خلدون نظرة إجلال، وإكبار وتعظيم؛ بحيث اعتبروه من أعظم علماء فلسفة التاريخ، ويظهر ذلك في الاهتمام بأعماله، والعمل على ترجمتها، عكس العرب الذين أساءوا كثيرا لهذا العالم الذي لا يشق له غبار في علم الاجتماع، وفلسفة التاريخ، ولاسيما في عصرنا الحديث، حيث اتهموه في مقدمته الخالدة، وقالوا عنه ظلما: إنه لم يسع إلى العرب إلا لأنه من البربر. 10

3 نزعة ابن خلدون الذميمة:

اكتسب ابن خلدون خصلة ذميمة، شوّهت صورته أمام الناس عامة، والملوك والسلاطين خاصة، جعلته منبوذا ومشكوك في أمره أينما شرّق أو غرب، "يصرح هو بتصويرها، ولا يحاول إخفاءها، وإن كان يلتمس لها المعاذير والمبررات، وهي نزعة انتهاز الفرص بأية وسيلة، وتدبير الوصول، إلى المقاصد من أي طريق، فكان لا يضرب في سبيل الوصول إلى

منافعه وغاياته الخاصة، أو في سبيل اتقاء ضرر متوقع، أن يسيء إلى من أحسنوا إليه، ويتآمر ضد من غمروه بفضلهم، ويتنكر لمن قدموا له المعروف، فظلت هذه النزعة في مغامراته السياسية، وعلاقاته بالملوك والأمراء والعظماء.... حتى مماته. ويعترف هو بنفسه، بما وقع بينه وبين أمير بجاية الأسير من التفاهم... بتدبير مؤامرة لتحريره واسترداد ملكه على أن يؤليه منصب الحجابة، أرقى منصب في الدولة، ويشبه منصب رئيس الوزراء.¹¹

4. التعريف بكتابه الموسوم: ' التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرق':

الرحلة نقلة في الزمان والمكان وسفر داخلي في فكر صاحبها، هي كثيرة المؤلفات التي ألقت في هذا الشأن، ولعل كتاب ابن خلدون من بين هذه الكتب التي تحكي رحلاته غربا وشرقا، لكن ما يستوقفنا هنا عنوان كتابه؛ فهو ينشطر إلى قسمين، القسم الأول يسفر على أن الكتاب ترجمة ذاتية لابن خلدون، والقسم الثاني يسفر عن أن الكتاب ألف في الرحلة، فقد مزج ابن خلدون بين فنين فن السيرة وفن الرحلة؛ ليحكي لنا أحداث حياته، منذ نشأته إلى حين وفاته وبين طفولته، وشيخوخته الكثير من الحركة والتنقلات وما صحبهما من أحداث منها رحيله إلى الأندلس ومصر والحجاز والشام... وهذا كله سعيًا لتحقيق غاياته المنشودة.

فكتاب ابن خلدون " هو عبارة عن مذكرات شخصية كان يدونها يوما فيوما، وأطلق عليها اسم (التعريفات بابن خلدون)، وفيها ترجمته ونسبه، وتاريخ أسلافه، وشرح في هذه المذكرات ما عاناه في حياته ورحلاته في المشرق والمغرب، وقد ظل هذا الكتاب طوال قرون ملحقا بكتاب (العبر) ولم يظهر بشكل مستقل حتى سنة (1951م) وذلك بجهود العالم المغربي (محمد بن تاويت الطنجي) المتوفى سنة (1963م).¹² لكن الكتاب عرف تسميات عديدة قبل أن يأخذ التسمية المتعارف عليه الآن، منها (التعريفات بابن خلدون)، وبعد رحلاته الكثيرة والكثيفة، وما طرأ على حياته في خضم هذه الرحلات من جديد، والتي أدخلها ضمن كتاباته؛ رأى أن هذا العنوان الذي ذكرناه لا يسعفه في ذلك لأنه يفتقر لـ " السعة والمرونة بحيث يشمل هذا الجديد الطارئ".¹³ فاضطر ابن خلدون إلى إجراء تعديل طفيف على العنوان لتتضح الرؤية ليصير على ما هو عليه الآن، ولاختلاف النسخ بين القديمة والحديثة، أثر الذين نقلوا عن النسخ القديمة، أن يسمو هذا الكتاب (رحلة ابن خلدون) منهم (أحمد بابا السوداني) في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج، والعالم التركي (أويس بن محمد).¹⁴

5. الأبعاد السياسية في الرحلة الخلدونية:

1.5 الشخصيات السياسية في الرحلة الخلدونية:

لقد حفل نص " رحلة ابن خلدون " الموسومة ب (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) بالعديد من الشخصيات السياسية، من سلاطين وملوك، وأمراء، ووزراء وحجاب... تنوعت مهام كل واحد حسب منصبه؛ من تدبير أمور الدولة، والسهر على شؤون الرعية وخدمتها، من هؤلاء الشخصيات نذكر منهم: السلطان أبو الحسن، والسلطان

أبو عنان، وأبو العباس، وأبو حمّو، وأبو سالم، والأمير محمد صاحب بجاية... وغيرهم؛ نحاول من خلال هذه الدراسة التعريف ببعض هذه الشخصيات السياسية، مع ذكر أخبارها كما جاءت في الرحلة، وتبيين أثرها في حياة العلامة ابن خلدون.

2.5 الأمراء والسلاطين:

لعل أبرز الشخصيات السياسية التي يتلقاه قارئ رحلة ابن خلدون هي شخصية (أبي عنان وأبي الحسن) والتي لا مناص من الحديث عنهما وعن أخبارهما مجتمعتين التي تجلت في الرحلة، وبشهادة صاحبها، وذكر أخبار ابن خلدون، والعلاقة التي جمعتها بالوالد وابنه (السلطانين أبي الحسن وأبي عنان)، بالإضافة إلى بعض السلاطين الذين قد كان لابن خلدون نصيب من حياته السياسية بجوارهم ك: أبو محمد بن تافراكين، وأبو سالم.

1.2.5 علي أبو الحسن بن عثمان المريني (السلطان):

1.1.2.5 نبذة موجزة عن حياته:

هو "علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، يكنى 'أبا الحسن' لقبه المنصور بالله، مولده في صفر سنة سبع وتسعين وستمائة (697هـ)، بويغ له بعد أبيه يوم الجمعة: الخامس والعشرين لذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة (731هـ) كان من أفخم ملوك بني مرين¹⁵ وعاشر سلاطينها¹⁶ عمّرت دولته أكثر من عشرين سنة¹⁷

كان أبو الحسن (السلطان) "ضخم الملك متسع السلطان، ملك المغرب بأجمعه، واستولى على ملك تلمسان بعد قتله لسلطانها أبي (تاشفين)، وملك مدينة تونس سنة (ثمان وأربعين وسبعمائة) (847هـ) بعد قتله لملكها (عمر بن أبي يحيى الموحيدي الهنتاتي)"¹⁸

فتح جبل طارق سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة (732هـ) وبنا القصور والدور والمساجد والمدارس بمدينة فاس منها مدرسة أبي مدين بتلمسان، والمصباحية بفاس¹⁹... كما كانت له غزوات شهيرة أتت على ملكه سنأتي على ذكر بعضها من خلال نص رحلة ابن خلدون.

أما وفاته فقد اختلف فيها؛ فقد قيل: "بجبل (هنتانة) من مراکش في آخر من ربيع الأول المبارك من عام اثنين وخمسين وسبعمائة (752هـ)، وقيل في الثالث والعشرين من ربيع الثاني والمنقوش على قبره، قيل أنّ وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة، وحمله ابنه إلى (شالة) فدفنه بها في مقابر أسلافهم هناك." ²⁰ ولعل هذا الأخير هو ما ذكره ابن خلدون في رحلته عندما تحدث عن هلاك السلطان (أبي الحسن).

2.1.2.5 أخباره كما جاءت في الرحلة الخلدونية:

من أخبار السلطان (أبي الحسن) التي جاء على ذكرها العلامة ابن خلدون في رحلته هذه؛ أنه زحف بجيشه إلى تلمسان التي كانت تحت راية "ابن تاشفين"، وملكها عنوة بعد أن فرض عليها حصارا دام أزيد من سنتين، وكان ذلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (737هـ).²¹ أما عن بداية النزاع بين السلطان أبي الحسن والسلطان أبي تاشفين؛ فكان في شوال من عام خمس وثلاثين وسبعمائة إلى أن انتهى بمقتل هذا الأخير لتصبح تلمسان في قبضة السلطان أبا الحسن وذلك في السابع والعشرين من شهر الصيام من السنة المذكورة، ومقتله انقضت الدولة العبد وادية.²²

من أخباره أنه كان من محب العلم والعلماء ويثبت هذا الجانب من حياة (أبي الحسن) قول ابن خلدون من الرحلة "ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان... وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق، ويعمر بهم مجلسه."²³

ومن أخباره أنه "ملك إفريقية سنة ثمان وأربعين."²⁴ وإفريقية هذه هي تونس عاصمة دولة بني حفص.²⁵ ومنها إلى بجاية فاستولى عليها.²⁶

من أخباره واقعة طريف وواقعة القيروان وهما حربان لم تسعفه قوته للتغلب على أعدائه فيهما على التوالي مما كانتا علامة بارزة على بداية أفول نجم السلطان أبي الحسن، وبالتالي انهيار النظام العسكري لدولة بني مرين نتيجة لهذه الهزائم المتوالية. أهمها هزيمة طريف سنة (741هـ).²⁷ وهي واقعة للسلطان أبي الحسن المريني بمدينة طريف بالأندلس، كانت الدائرة فيها عليه.²⁸ والواقعة الأخرى وهي الأعنف في تاريخ الأندلس كانت سنة (749هـ) تغلب فيها وقتئذ (الكعون) من بني سليم على السلطان أبي الحسن.²⁹ وبعدهما حادثة الغرق التي أودت بالكثير من أصحاب الفكر الخصب ورجالات السياسة الذين رافقوا أبي الحسن، أضف إلى ذلك الخسائر المادية المعتبرة، ولحسن الحظ نجا هذا الأخير من الغرق بأعجوبة بعدما تم إنقاذه. وهذه الأحداث المؤلمة يقصها علينا ابن خلدون في كتابه 'التعريف' بقوله "ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين ومربجاية، فأدركه الغرق في سواحلها، فغرقت أساطيله، وغرق أهله، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم، وألقاه البحر ببعض الجزر هناك حتى استنقذه منها بعض أساطيله، ونجا إلى الجزائر."³⁰ كما لا ننسى حادثة الانتقال التي قام بها أبو عنان سنة (749هـ) ضد والده هي: خلعه.

31

2.2.5 أخبار أبي عنان كما جاءت في رحلة ابن خلدون:

1.2.2.5 نبذة موجزة عن حياة السلطان أبي عنان:

جاء في ترجمته: هو فارس بن علي، بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، يكنى أبا عنان لقبه المتوكل على الله، أمه رومية اسمها (شمس الضحى) بويغ في تلمسان في حياة أبيه (أبي الحسن) عام (749هـ) ولد في المدينة البيضاء سنة (729هـ) لم تطل مدة حكمه حوالي تسع سنوات وتسع أشهر، مات مقتولا خنقه وزيره (الحسن بن عمر الفودودي)

عام (759هـ) وله من العمر ثلاثون سنة، ودفن بجامع المدين البيضاء. كان فقيها يناظر العلماء ومجبا لأهل العلم، كان عارفا بالمنطق وأصول الدين...³²

2.2.2.5 أخباره في الرحلة:

بعد حادثة القيروان المأساوية التي تغلب فيها (الكعون) على جيش السلطان (أبي الحسن)، ثم غرقه مع أهله والكثير من مرافقيه في البحر؛ نجا بأعجوبة، ثم عاد ليجد ابنه قد تمرد عليه، وكان هذا سنة تسع وأربعين ومائة هجرية (749هـ)³³ وبعد مهلك أباه السلطان أبي الحسن؛ زحف إلى تلمسان فملكها سنة ثلاث وخمسين وسبع مائة.³⁴

ومن أخباره السياسية أيضا أنه قام بحملة تأليب وتحريض ضد أباه؛ حيث قام بنقل الأمراء والوزراء من كانوا في خدمة السلطان المخلوع، من أهل بجاية وقسنطينة، وخلطهم بنفسه، وبالغ في تكريمهم من هؤلاء الأمير أبا عبد الله وإخوته من تلمسان، وأبا زيد وإخوته من فاس ليخذلوا الناس عن السلطان أبي الحسن.³⁵

من أخباره التي ساقها إلينا صاحب الرحلة؛ أنه بدأ يعمل بتوسيع ملكه، بشن الحروب والغارات على المناطق المجاورة، التي كانت في قبضة أبيه السلطان؛ إذ استطاع أن يملك المغرب وتلمسان التي قتل سلطانها (عثمان بن عبد الرحمن)، وأخاه (ثابت)، وأنه انتهى إلى المديّة، وملك بجاية من يد صاحبها (الأمير عبد الله).³⁶

من أخباره كان أنه كان محبا للعلم له نصيب منه، وكان ممن لا ينسى فضل أهل العلم عليه وعلى ملكه، فهو كان يقرن سياسته بالعلم، فهو لا يخطو خطوة أو يقوم بأمر إلا ويستشير ويستخير؛ حيث كان يقرب العلماء منه، ويضمهم في مجلسه، وينتقي الطلبة للمذاكرة، ومناظرهم في مسائل شتى ولاسيما التي تخص الرعية... ومن جملة العلماء الذين ضمهم إلى مجلسه: الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصّفار، من أهل مراكش إمام القراءات لوقته، وشيخ المحدثين: الرحالة أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري سند أهل المغرب الذي كان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي³⁷

من أخباره أنه طرقة مرض آخر سنة ست وخمسين وهو لا يزال شابا يافعا، أودى بحياته بعد ثلاث سنوات من الألم، ولكن لم يفتر أو يتوان في أداء مهامه السياسية، وكان منها بعد أن أنمي إليه: أن صاحب بجاية يتحين الفرص للفرار لإرجاع ملكه المسلوب، فأمر بسجنه، أيضا قام أصحاب الغواية والفتن بتحريض السلطان على ابن خلدون، بأنه شريك له فقام بالقبض عليه وسجنه مع صاحب بجاية.³⁸

هذه بعض الأخبار السياسية التي تكلمنا عنها ابن خلدون، تسفر عن الجانب السياسي الطاغبي على رحلته، غربا وشرقا، ننتقل بعد هذا العرض الموجز عن أخبار أهم شخصيتين التي استغرقت حيزا كبيرا من حياة العلامة ابن خلدون السياسية، للحديث عن أهم الوظائف التي مارسها في خضم حياة الملوك والأمراء، هي بدورها تظهر البعد الذي يمكن أن نصنف هذا العمل من خلالها.

6. وظائف ابن خلدون السياسية:

1.6 كتابة العلامة:

تولى ابن خلدون العديد من الوظائف، التي كلف بها من قبل الملوك والسلاطين؛ التي يمكن أن تنعت بالوظائف السياسية؛ أول هذه الوظائف كما جاء مبين في الرحلة وظيفة: كتابة العلامة لدى أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس والمستبد على الدولة يومئذ عن أسيره السلطان الفتي (أبي إسحاق)³⁹ ويؤكد هذا الخبر قول ابن خلدون من الرحلة هذا نصه: "واستدعاني (أبو محمد بن تافراكين) المستبد على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحاق".⁴⁰ والعلامة هي "وضع (الحمد لله والشكر لله) بالقلم الغليظ، مما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة، أو مرسوم".⁴¹ وكان ذلك في أواخر سنة (751هـ). وعمره آنذاك لم يتجاوز السن العشرين، وهذا إن دل فإنما يدل على سعة علمه وثقافته الكبيرة، وشدة ذكائه، والنضج المبكر في شخصيته.

2.6 الكتابة والتوقيع:

لما كان ما ذكرنا من أخبار السلطان (أبي عنان) من خلعه لأبيه السلطان (أبي الحسن) ثم ملكه للمغرب الأقصى، وزحفه على المغرب الأوسط، واستولى على تلمسان، وما كان يقوم به من انتقاء لطلبة العلم للمذاكرة في مجلسه، كان ابن خلدون من بين هؤلاء الطلبة المرموقين الذين قريهم السلطان من مجلسه واختصهم بفضله وإكرامه عليهم، وكان ذلك سنة (755هـ) وكان من فضل هذا السلطان على ابن خلدون، تكليفه بوظيفة الكتابة والتوقيع عنه. يقول ابن خلدون "لما عاد السلطان أبو فارس... من تونس... كتب إلى الحاجب يستقدمني فقدمت عليه سنة (755هـ) ونظمني في أهل مجلسه العلمي، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه".⁴³ والتوقيع هو: "كتابة الأوامر والقراءات السلطانية بعبارة موجزة بليغة، ويسمى صاحب هذا المنصب الموقع، وكان من أكبر المناصب في هذه الدولة".⁴⁴

3.6 كتابة السر والإنشاء:

لما تولى أبو سالم السلطان زمام الدولة عن أبيه (أبي الحسن) وتربع على عرشها، قام بتدبير شؤون دولته؛ وإسناد بعض الوظائف والمهام الحساسة لذوي الكفاءات العالية ككتابة السر والإنشاء لابن خلدون وكان هذا على حد قول مؤلف الكتاب ابن خلدون: "منتصف شعبان ستين وسبع مائة (760هـ) فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سرّه والترسل عنه، والإنشاء لمخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل".⁴⁵

4.6 الحجابة:

هي من أعلى المناصب التي تولى زمامها ابن خلدون، وهي ما كان يصبوا إليه لأنه يمنح صاحبه الاستقلال بالدولة، وقد عرّفها ابن خلدون بقوله: "الحجابه في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان، وبين أهل دولته لا يشاركه في ذلك أحد." ⁴⁶ ومن تولى في عهده ولاية الحجابه (السلطان أبي عبد الله) المستبد على بجاية وقتئذ، وذلك بعد أن كتب له بخط يده "عهدا بولاية الحجابه متى حصل على سلطانه." ⁴⁷ وهو يومئذ في رعاية السلطان (أبي عنان)؛ بعد أن أتمّى له من بعض الوثائق أنّه يستعد للفرار، فقام هذا الأخير وسطا بنا، واعتقل (ابن خلدون) نحو سنتين "إلى أن هلك وجاء السلطان (أبو سالم) " ⁴⁸ ليطلق سراحه، ويمكنه بتولي وظيفة كتابة سرّه، وبينما هو كذلك وصله "الخبر باستيلاء الأمير (أبي عبد الله) على بجاية من يد عمّه في رمضان سنة خمس وستين، وكتب الأمير (أبو عبد الله) يستقدمني، فاعتزمت على ذلك... وركبت البحر من ساحل المرية منتصف ست وستين، ونزلت بجاية... ثم وصلت إلى السلطان... وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة باي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره، وتديير سلطانه." ⁴⁹ ولعله أسمى المناصب وأرفعها بعد السلطنة، فلم يبق بين ابن خلدون وبين السلطنة حاجز بعيد؛ فهو قاب قوسين أو أدنى منها، فهو لم يكن يرضى بالمناصب التي تكون أقلّ شأن من المناصب التي عهدتها هو على أسلافه، حيث كان يتنقل من وظيفة لأخرى، غير مبال بصديق أو إحسان محسن له، إلّا أن يصل إلى هدفه بشق الطرق، ولو بالأساليب الملتوية؛ وقد وصل، لكن وصوله لم يكن موفق. ودليله أنّه ما إن هلك السلطان أبي عبد الله على يد ابن عمّه السلطان أبو العباس؛ حتى هرع ابن خلدون مسرعا ليسلم له بجاية، ليكرمه هذا الأخير "وأقره في منصب الحجابه، ثم ما لبث أن ارتاب منه." ⁵⁰ طبيعي تصرفات مثل هذه تترك الشخص محل ريبة وشك، لأنها في منزلة الخيانة - حتى لا نقول خيانة - أو جبن منه أو تصرف غير حكيم من ابن خلدون؛ هي آراء تدور في أذهان العامة من أهل بجاية ولعله الأنسب والسديد لمجرب وعارف بالفارق بين القوتين ليسلم هو وأهل بجاية دون زهق لأرواح الناس؛ جعلته يعاقب بترك منصبه، والابتدال من قبل سكان بجاية.

5.6 السفارة (الدبلوماسية):

تكلم ابن خلدون عن العديد من المهام السياسية - السفارة - التي كلف بها من قبل السلاطين؛ الذين نظموا إليهم، ومنحوه صلاحيات كبيرة تليق بمقامه كولاية الحجابه، وغيرها، والتي تعددت دوافعها منها:

1.5.6 السفارة من أجل الصلح:

لما وصل ابن خلدون إلى غرناطة؛ التي كان سلطانها يومئذ (محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر النصري) ثالث ملوك بني الأحمر، والذي غمره بكل أنواع الرعاية والكرم، ليقوم بتكليفه في العام الموالي بمهمة السفارة بينه وبين ملك قشتالة، من أجل إبرام صلح قد كانا أزمعا على عقده، وهذا ما أخبر به هو عن نفسه في رحلته يقول: "وسفرت عنه (يقصد السلطان بن الأحمر) سنة خمس وستين (765هـ) إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بتطرة بن الهنشة بن أذفونش؛ لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العداوة بهدية فاخرة... فلقيت الطاغية باشييلية." ⁵¹

2.5.6 السفارة من أجل تأليف القبائل:

بعدم أثر ابن خلدون التخلي عن السياسة والتفرغ لقراءة العلم، انصرف إلى مدينة فاس بجوار الشيخ الولي (أبي مدين) لكن السلطان (عبد العزيز) لم يتركه على حريته؛ ليستدعيه إلى طاعته، ويسند له مهمة تأليف قلوب القبائل المنتشرة في الصحراء من بني عبد الواد، ولم شملهم، وحملهم على طاعته. بعد أن "أعمل السلطان نظره، ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطد أمره، وأحملهم على مناصرته، وشفاء نفسه من عدوه، بما كان السلطان آنس مني من استتباع رياح، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة." ⁵² مستغلا العداء المشتركة بينه وبين سلطان تونس (أبي إسحاق) يضمراها لسلطان قسنطينة. ⁵³

3.5.6 سفارة التحريض إلى إجابة السلطان أبي سالم:

قام السلطان أبو سالم بإسناد وظيفة دعوة شيوخ بني مرين لطاعته إلى ابن خلدون، لمعرفته بما كان بينه وبينهم من محبة وائتلاف. يقول ابن خلدون "ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب ملكه... وكان ابن مرزوق بفاس، فبث دعوته سرًا، واستعان بي على أمره بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة والائتلاف، فحملت الكثير منهم على ذلك وأجابوني إليه." ⁵⁴

7. الهروب السياسي:

كثيرا ما كان يفر ابن خلدون من الوظائف السياسية عندما تتأزم الأوضاع، أو يشم رائحة الانقباض من أمير أو سلطان، أو يشعر بأنّ جوه تعكر صفوه أو يكاد. فيبدأ يبحث عن الأسباب، ويخلق الأعذار لترك تلك المهام السياسية والوظائف المرموقة في الدولة الملقاة على عاتقه؛ تجنباً للفتنة أو نجاة بنفسه خوفاً من أن يغدر به.

من بين هذا الهروب السياسي، وهو يومئذ في خدمة السلطان (أبن الأحمر)، ووزيره (ابن الخطيب) بغرناطة؛ قام ابن خلدون بترك خدمة هذا السلطان والانتقال إلى بجاية لتولي منصب الحجابة تحت ظل السلطان أبي عبد الله، يحكي لنا هذا الفرار ابن خلدون بقوله "ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا جواد الغيرة، فتنكر وشمتم منه رائحة الانقباض، وجاءني كتب السلطان (أبي عبد الله) صاحب بجاية، بأنه استولى عليها في رمضان خمس وستين واستدعاني إليه، فاستأذنت السلطان (ابن الأحمر) في الارتحال إليه... فارتقض حزنا لذلك ولم يسعه إلا الإسعاف." ⁵⁵

من هذا الهروب أيضا والمتجلي في الرحلة هروبه من السلطان (أبي العباس) الذي استولى على بجاية من سلطاتها أبي عبد الله ثم قتله. يحكي لنا ابن خلدون مجريات هذه الحادثة، بعدما كان قد أمكن أبي العباس من بلده ليبسط عرشه على بجاية، ثم أكرمه وقرّبه منه، وأجرى أحواله كلها على ما كانت عليه، يقول ابن خلدون " وكثرت السعاية عنده فيّ، والتحذير من مكاني. وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فأذن لي بعد لأي، وخرجت إلى العرب، ونزلت على (يعقوب بن علي). " ⁵⁶ بعد الحفاوة والإكرام الذي ناله ابن خلدون من أبي العباس، خلق له مضايقات من مقرّي السلطان، لمعرفتهم التامة لابن خلدون وما يمكن أن يفعله من خلق مشكلة للسلطان أو الانقضاض عليه كما فعلها بصديقه أبي عبد الله. فما كان على ابن خلدون إلا الهرب والتّجاة بجلده بعد أن أحسّ بريح الغدر وهو صاحبه، ثم التّزول عند يعقوب بن علي.

من هذا الهروب أيضا: الخروج من تونس متذرعا "برغبته في أداء فريضة الحج، ولكنه في الحقيقة قصد الدّيار المصرية بعد أن كثرت حوله السّعايات والمضايقات في تونس التي لم يطل مقامه فيها أكثر من أربع سنوات (780-784هـ) عقب نزوحه إليها من معتزله بقلعة ابن سلامة. " ⁵⁷

8. الخاتمة:

العلامة ابن خلدون رائد من رواد علم الاجتماع وفلسفة التّاريخ، أنصفه الغرب وذلك بنفض الغبار عن أعماله، وأساء أبناء جلدته له وقالوا عنه بربريا.

عرف ابن خلدون بمؤلفاته التي تخلد روحه، ولعل أعظمها شأنًا كتاب: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" أو ما يعرف ب: "تاريخ ابن خلدون" وكتابه "رحلة ابن خلدون" جزء لا يتجزأ من هذا الأخير ذيل به ابن خلدون كتابه (العبر)، لم يبصر النور حتى سنة 1951م مع العالم المغربي (محمد ابن تاويت الطنجي) فصار كتابا مستقلا بنفسه.

من الميزات الخاصة التي ميّزت رحلة ابن خلدون أنّها عاجلت قضيتين في وقت واحد هما السيرة بشقيها الذاتية والغيرية، وأدب الرحلة، الذي تمثل في سرد الأحداث التي ألمت به في رحلاته الكثيرة.

يخبرنا ابن خلدون في كتابه هذا عن الأحداث السياسية التي عاشها، والمناصب التي تقلّد مهامها كالكتابة والتوقيع، وكتابة السر والإنشاء، والحجابه، وغيرها عبر مختلف تنقلاته ورحلاته.

والأدهى والأمر من كل هذا؛ أنّ كتاب ابن خلدون يعد بمثابة الوثيقة السياسية، التي يريد أن يوصل لنا من خلالها حياة الملوك والأمراء العرب، وكيف كانوا يتنافسون على السلطنة، الابن لا يراعي حقا لأباه ويخرج عن طاعته، وابن العم يقتل ابن عمه، أصبح الصراع بين ذوي الأرحام، والدوائر تدور حولنا ونحن مازلنا نصارع بعضنا البعض.

9. المصادر والمراجع:

- 1- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-808هـ) تح، محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2007م.
- 2- مقدمة العلامة ابن خلدون: ابن خلدون، ج3، دار مكتبة الهلال، بيروت، دط، 2008م.
- 3- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تح علي عبد الواحد وافي، دار نخضة مصر، ط7، 2014،
- 4- الدلالات الحضارية في لغة المقدمة، عند ابن خلدون، حسن اسماعيل، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2007.
- 5- عباقره خلدون، ابن خلدون العبقرى الذي ظلمه العرب وأنصفه الغربيون، محمد كاما حسن المحامي، المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، 1996م.
- 6- الأعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، ج7: تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1418هـ/1997م.
- 7- الدلالات الحضارية في لغة المقدمة عند ابن خلدون: حسن إسماعيل، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2007م.
- 8- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-808هـ) تح، محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2007م.
- 9- روضة النسرين في دولة بني مرين: إسماعيل بن الأحمر، المطبعة الملكية، الرباط، دط، 1382هـ/1962م.
- 10- فلسفة التاريخ عند ابن خلدون: زينب محمود الخضيرى، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، دط، 1998م.
- 11- فهارس علماء المغرب - منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها تطورها، قيمتها العلمية، عبد الله المرابطي الترغي، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ط1، 1420/1999م.
- 12- ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، محمد غياث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط4، 1427هـ/2006.
- 13- عبد الرحمن بن خلدون - حياته وآثاره ومظاهر عبقريته: عبد الواحد الوافي، مكتبة مصر، النجالة، دط، دت.
- 14- أعلام العرب - عبد الرحمن بن خلدون حياته وآثاره ومظاهر عبقريته -، علي عبد الوافي، مكتبة مصر، النجالة، دط، دت.
- 15- رحلة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشيلي (808هـ)، تح محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2. 1426هـ/2005م.
- 16- عبد الرحمن بن خلدون، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته: علي عبد الواحد الوافي، مكتبة مصر، النجالة، دط، دت،
- 17- فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط10، 2014م.

10. الهوامش:

¹ - ينظر التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-808هـ) تح، محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2007م، ص1

² - ينظر المصدر نفسه، ص15

³ مقدمة العلامة ابن خلدون، ابن خلدون، ج3، دار مكتبة الهلال، بيروت، دط، 2008م، ص8

⁴ ابن خلدون حياته وتراثه الفكري: محمد عبد الله عنان، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط4، 1427هـ/2006م، ص16

- ⁵ ينظر مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: علي عبد الواحد وافي، دار نضضة مصر، ط2014، 7، ص38
- ⁶ الدلالات الحضارية في لغة المقدمة عند ابن خلدون: حسن إسماعيل، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2007، ص115
- ⁷ ينظر التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ابن خلدون، ص15-20
- ⁸ مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: علي عبد الواحد وافي، ص39
- ⁹ المصدر السابق، ص48
- ¹⁰ ينظر عباقرة خالدين (ابن خلدون الذي ظلمه العرب وأنصفه الغربيون) محمد كاما حسن المحامي، المكتب العالمي للطباعة والتشريع والتوزيع، بيروت، دط، 1996م، ص09
- ¹¹ مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ج1، تح: علي عبد الواحد وافي، ص52
- ¹² رحلة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: محمد بن تاووت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1426هـ/2005م، ص03
- ¹³ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: ابن خلدون، ص20
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص21
- ¹⁵ ينظر الأعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، ج7، تح: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1418هـ/1997م، ص171
- ¹⁶ ينظر الدلالات الحضارية في لغة المقدمة عند ابن خلدون: حسن إسماعيل، دار الفارابي، بيروت، ط2007، 1، ص83
- ¹⁷ ينظر الأعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم السملالي، ج7، ص83
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص172
- ¹⁹ الأعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم السملالي، ج7، ص173
- ²⁰ المرجع نفسه، ص174
- ²¹ ينظر التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: عبد الرحمن بن خلدون، (732هـ-808م)، تح: محمد بن تاووت الطنجي، ص51
- ²² ينظر روضة النسر في دولة بني مرين: إسماعيل بن الأحمر، المطبعة الملكية، الرباط، دط، 1382هـ/1962م، ص51
- ²³ ينظر التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: ابن خلدون، ص46
- ²⁴ المصدر نفسه، ص19
- ²⁵ ينظر فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، زينب محمود الخضيرى، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، دط، 1998م، ص17
- ²⁶ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: ابن خلدون، ص65
- ²⁷ ينظر فهرس علماء المغرب (منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها تطورها، قيمتها العلمية، عبد الله المرابطي التريخي، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ط1، 1420هـ/1999م، ص24
- ²⁸ التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: ابن خلدون، ص30
- ²⁹ المصدر السابق، ص32
- ³⁰ المصدر نفسه، ص32
- ³¹ المصدر نفسه، ص60
- ³² المصدر نفسه، ص60
- ³³ ينظر روضة النسر في دولة بني مرين: إسماعيل بن الأحمر، ص27، 28
- ³⁴ ينظر التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ابن خلدون، ص63
- ³⁵ ينظر المصدر السابق، ص95
- ³⁶ ينظر المصدر نفسه، ص56، 57
- ³⁷ ينظر المصدر نفسه، ص58، 59
- ³⁸ ينظر المصدر نفسه، ص63
- ³⁹ ينظر ابن خلدون حياته وراثته الفكرية، محمد غيث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط4، 1427هـ/2006م، ص23

- 40 التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: ابن خلدون، تح: محمد بن تاووت الطنجي، ص55
- 41 المصدر نفسه، ص55
- 42 أعلام العرب-عبد الرحمن بن خلدون -حياته وآثاره ومظاهر عبقريته: عبد الواحد الواقي، مكتبة مصر، الفجالة، دط، دت، ص42
- 43 التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا: ابن خلدون، تح: محمد بن تاووت الطنجي، ص58، 59
- 44 أعلام العرب -عبد الرحمن بن خلدون-حياته وآثاره ومظاهر عبقريته: عبد الواحد الواقي، ص46
- 45 التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص70
- 46 المصدر نفسه، ص97
- 47 المصدر نفسه، ص97
- 48 المصدر نفسه، ص96
- 49 رحلة ابن خلدون، ابن خلدون، ص95
- 50 أعلام العرب-عبد الرحمن بن خلدون، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته: علي عبد الواحد واقي، ص67
- 51 التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرق، عبد الرحمن بن خلدون، ص84
- 52 المصدر السابق، ص135
- 53 الدلالات الحضارية في لغة المقدمة عند ابن خلدون: حسن إسماعيل، ص138
- 54 التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عبد الرحمن بن خلدون، ص68، 69
- 55 المصدر نفسه، ص91
- 56 المصدر السابق، ص96
- 57 فكر ابن خلدون العصبية والدولة -معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط10، 2014م، ص35